

صلاة سريّة

قصة يقام ندعم خُصْفَة

لا اعرف من المخطيء فيهم ومن المصيب، ولكن الذي اعرفه : ان دم الانسان قد سفك . . .

انحنى على المقود باهتمام . والرقيب الى جانبه . وبعد قليل . خفف من سرعته . ثم وففت السيارة امام حفرة عميقة اعترضت طريقها وقد انتشرت على حافتيها الاتربة ، وقطع الاثاث القديمة ، وجذع شجرة ، وبعض البراميل المثقلة بالحجارة . ونبه وقوفها الجنود من سهوتهم فقال احدهم بعد ان نظر من النافذة : « متاريس » فhez الاخر كفيه واسنسد ظهره ثم اغمض اجفانه . كان الرقيب يتحدث وهو يرفع حواجه ويشير بيديه . ثم دارت السيارة ودخلت حارة جانبية مرصوفة بالحجارة . ففتح الشيخ النافذة وسأل الرقيب : - الى اين نحن ذاهبون ؟ فاجابه دون ان يلتفت اليه - وكان واضحا انه في مازق : - الى جهنم .

فرجع الشيخ يتشبث بالعمود ورائه وهو يحوقل . ولم تكد تخرج السيارة الى الشارع الرئيسي حتى وقفت . فقال الجندي بلهجة هازئة وعيناه الى السقف : « متاريس » . ولكنه لمح الشرطة العسكرية في قيعاتهم الحمر ، فاعتدل في جلسته ، واحكم قبضته على السلاح . نزل الرقيب وحياهم فامرهم احدهم بصوت مرتفع مبحوح :

- اخذه الى المستشفى معك .

كان بينهم مدني في بنظون قدر ، وقد لف راسه بقميصه ، ووقف عاري الصدر ، يسنده الى الجدار شرطي . كان وجهه اصفر ممتعا ، والدم يسيل من اذنه اليسرى ، وهو يظرف باحدى عينيّه ، ويقلس شفتيه الما . فجادله وهو يبسط كفيه :

- لست ذاهبا الى المستشفى .

ولكن منظر المدني جعله يغير رايه . فلوح بيده يائسا وعاد السى مقعده وهو يزفر . التصقوا بالمقعد ، ورفعوا اقدامهم على رؤوس الاصابع ، لئلا يلمسوا الرجل الممدد الذي كان يجاز متالما كلما اهتزت السيارة به . ولم يستطع الشيخ عيد ان يجلس ساكنا كالاخرين فجعل يقرأ على جبينه « آية الكرسي » ، ويدعو له الله في سره ، حتى هدأت حركته ولم يعد يصدر عنه حتى الاين . فنظر الشيخ في وجوههم كأنه يقول : انظروا ما فعلت الايات به . ووقفت السيارة اخيرا امام باب المستشفى . ولم يستجيب لنداء النفير احد . كان مقلقا . فنزل الرقيب يقرع الباب الحديدي بقدمه وهو يشتم . ثم امر الجنود فحملوا الجريح واسندوه الى الرصيف بجانب الباب . وقبل ان ينصرفوا اقبل من الداخل رجل عجوز اعرج ، يحمل في يده مقصا للخشائش . وقد عجب الشيخ عيد لهذا الرجل يعنى بالحديقة والناس محبوسة وراء الابواب . ولكن تبين له حين سئل عن الاطباء انه اصم لا يسمع شيئا ، ولكنه يردد بصوت اجوف :

- البواب جوه . الناس تموت . يا ساتر يا رب .

ولما يس الرقيب من فهم اي شيء منه ، اكتفى بان اشار السى الرجل الممدد على الرصيف ثم عاد الى مقعده يتبعه الجنود . وابتعدت السيارة بهم . ورأى الشيخ ان العجوز الاصم قد فتح الباب وانحنى على الجريح ثم انتصب يلوح بمقصه ويهتف باعلى صوته . فقال للجنود :

الشيخ عيد في لحظة تفكير عميق . جالس امام المحراب بعد ان صلى في الناس صلاة العصر . لم يكن يفكر فحسب بل يهمس في سره ايات من سورة يس . وعمود من الشمس الغاربة يدخل النافذة فيعكس على القاعة لون زجاجها الاحمر والازرق . ويرفع راسه ليرمق المصلين : عددهم قليل ، اقل من الايام السابقة . طبعاً . ايام فتنة . ممنوع التجول الا في الحارات الداخلية . لم يتخدد بخشوعهم وسكون اطرافهم . فهو يعلم ان صدورهم تضطرب بالحقد والرغبة ومشاكل الحياة . وقد جاءهم هذا اليوم شاغل جديد : ممنوع التجول . استمر اطلاق الرصاص منذ صلاة الصبح حتى انتصاف النهار . ثم حلت طائرة . واختنق صوت المذيع . ولم يسمع في الاجهزة سوى صفر طويل . ولكن ما يهمة منهم ؟ ليقتلوا انفسهم ، ولتخلق فوفهم الطائرات . ان للمساجد حرمة ، ومن يدخلها فهو آمن . لا اله الا الله . ستبقي المساجد حرما آمنا . ولح احد المصلين يسلم ثم ينهض يبحث عن حذائه ، ثم يدس فيه قدميه ويخرج . بقي ثلاثة . احدهم يصلي بنشاط في اقصى الركن ، والاخران يبحثان في خزانة الكتب . اخرج احدهما مصحفا قبله في خشوع وجلس يقرأ فيه . ومضى الاخر بعد ان تشاءب . السوق مفلق ، والمذيع لا ينطق بغير الصفر ، والمغرب بعيد ، والتجول ممنوع . لم يبق غير النوم اذن . وراحه هذا الخاطر فثقلت اجفانه ، وكان يسهو عن سورة يس . فاسرع في التلاوة وختمها بالدعاء . ونهض يسوي الحزام على وسطه ، ويركز عمامته ، ولكنه سمع في الطريق صوت محرك ، ثم وففت سيارة . وبعد قليل كان يضعف الدرج عدد من الجنود ، على اكتافهم الاسلحة وفي ايديهم . وقفوا في العتبة وهم يتلفتون . وتقدم الرقيب خطوة ثم وقف يلهت ، وأشار للشيخ عيد :

- تفصل معنا يا استاذ .

والحق ان الشيخ قد خاف ، ولكنه استمسك بالحكمة . وحاول ان يتذكر الآية التي تقول ان للمساجد حرمة وان من يدخلها فهو آمن ، ولكنه لم يتذكر شيئا . فهمس بشيء من الحزم :

- ماذا تريدون ؟

فابتسم الرقيب ، ومسح العرق عن جبينه وهو يشير الى السيارة :

- نفصل . عندنا لك شغلة صغيرة . لا تخف .

فدس الشيخ في الخف قدميه ثم مشى ، والجنود ورائه ترتطم بالبلاط مسامير احديتهم . كان الفارئ في المصحف يجعل في تلاوته وهو يهتز الى امام ووراء ويلمح الجماعة بمؤخر عينه ، حتى اذا ارتفع صوت المحرك وقدر ان السيارة قد ابتعدت اطبق المصحف بشدة ، ورماه في الخزانة ، ثم حمل حذاءه وهرب .

نظر الشيخ الى مرافقيه . كان احدهم يجلس الى جانبه والاخران على الكرسي المقابل . حدقوا فيه قليلا ثم نزعوا البنادق عن اكتافهم وضموا عليها ركبهم ، والتفتوا الى الطريق .

كانت سيارة الجيب تجري في الشارع المقفر بسرعة هائلة ، حتى انها لتقف مرات اذا اعترضتها حفرة صغيرة . فتشبث الشيخ بعمود ورائه ، واحنى راسه ليرى الطريق من النافذة المظلة على السائق اللقي

فنظر بعضهم الى بعض قليلا ثم مشوا نحو الابنية القرميدية المسقوفة
بالصفيح الموج ، وعادوا يحمل كل اثنين منهم رجلا ، يدل ارتخاء اعضاءه،
وتعثر الجنود في حمله على انه : ميت . ثم يلقونه في احدى الحفرتين .
وبين دهشة الشيخ وفضه امره الرقيب :
- الان تقدر ان تصلي عليهم كما تريد .
- لن اصلي على احد حتى اعرف من قتلهم .
فحوي غضب الرقيب ومد يده الى سلاحه ، ثم نخر وهز قبضته
في وجه الشيخ :

- اسمع . اذا كنت تريد ان تعود الى بيتك فافعل ما امرتك .
يجب ان تصلي عليهم وباسرع ما يمكن . ثم اياك ان تخبر احدا . فهمت؟
واطل الشيخ على الحفرة . كان احدهم قد انكفا على وجهه
وانفجرت رجلاه . وانفتح في ظهره جرح واسع غمس قميصه كله
بالدم القاني . ولح في جيب بنطلونه الخلفي ، مفك براغي ، وكمامة ،
وادوات اخرى . بينما اندفن اخر تحت رفاقه ولم يظهر سوى رأسه
الدمي ، واصابعه المقبوضة كالمخالب . كان واضحا انهم عمال . وقد
اختلطت رائحة الدم اللزجة ، برائحة عرقهم ، وثيابهم التي الهتها
الشمس ، ففدت مزيجا ، زنخا ، يشير الغثيان . ولم يصبر الشيخ على
منظر الاجساد المذبوحة ، فرجع وهو يزفر من منخريه .
وبدا يصلي ويختلس النظر الى الحفرة فيلمح وجها محتفنا ، او
شفة مزرقة مقروضة . فربما اعاد الاية مرة او مرتين وهو غافل . ولاحظ
الرقيب تباطؤه فدنا منه وهمس :

- اسرع . غابت الشمس .
ولم يسمعه الشيخ فقد امتلا قلبه بالالم ، ولم يستطع ان يحبس
دمعه ، فسال على خديه وبلبل لحيته . وبشفتين مرتعشتين قرأ الفاتحة
في كفيه ومسح بهما وجهه . واقبل الجنود يهيلون التراب على الحفرتين ،
بينما هب نسيم بارد . وارتجفت شمس ايلول قليلا ، ثم غابت وراء
الصخور ، قرصا احمر ملتهب . وزحمت الافق غيوم سوداء . واقترب
الظلام .

نديم خشفه

- يبدو ان الرجل قد مات .
فهزوا رؤوسهم وانتهره احدهم :
- مات . مات . لم نعلم انه مات . كلنا سمنوت كالكلاب .
ولوى وجهه الى الطريق وهو يفرض اظافره .
وفكر الشيخ : مات . كنت اظنه قد استراح للقراءة . اخطات .
كان يجب ان اصلي عليه . ولم يستطع ان يكتم هذا خاطر ففهم :
- كان يجب ان اصلي عليه .
- ستصلي عليه وعلى امثاله ، ستصلي حتى تموت من الصلاة ،
يلعن دين ها الشفله .

قال له الرقيب ذلك ، ثم اغلق النافذة بعنف .
السيارة تجري في طريق ترابي ، وبقعة الدم التي نزلها الجريح
على ارض السيارة قد تخترت وعلتها طبقة سوداء ترتجف من تحتها
قطرات حمر لم تجمد بعد . بقعة سوداء متخثرة . هذا كل ما بقي من
انسان . هل علم اهله بموته؟ هل له اهل ؟ طبعا له اهل . ولكنه واجه
الموت وحيدا . لعل امه التي ولدته لم تكن تحسب ان ابنها سيموت
على الرصيف بعد ان نزل منه . لعلها تأمل ان يصبح شيئا مهما . ان
يتزوج ويخلف لها الاولاد . مات . هه . لم يخلف سوى بقعة الدم
السوداء المتخثرة . ووقفت السيارة ونزل الشيخ منها ولحق به الجنود .
وقبل ان يمضي لفت رأسه الى بقعة الدم : لقد داسها الجنود باحذيتهم
وهم ينزلون فاستحالت الى قطع قدرة متناثرة - بقايا انسان .
كانت التكنة التي وصلوها تقع في ارض كلسية جرداء ، تسيطر
بها الاسلاك الشائكة ، ويفصلها عن المدينة التي تشرف عليها - سهول
عشبية، تستخدم لحفظ العجلات القديمة، واعمدة البرق المطية بالقران .
ورأى في طرفها الغربي عددا من المساكين في بدلات العمل (اوفرول)
وبأيديهم الرفوش والعاول . يجفون عرقهم ويتحدثون ويدخون ، كأنما
انتهوا لتوهم من عمل شاق . ومشى به الرقيب اليهم . كانوا قد
حفروا حفرتين وكدسوا التراب على حافتيهما ، ولما اقتربا منهم وقفوا
مستعدين فامرهم :
- هاتوهم .

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

والحلقة الثانية

الحلقة الاولى

قَصِيرُ كَامُو

قَصِيرُ سَارْتِر

في كتاب واحد يضم : الغريب - الزوجة الخائنة -
الجاحد - اليكم - الضيف - جونس - الحجر الذي بنبت

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروسترات -
صميمية - صداقة عجيبة

ترجمة

عائدة مطرجي إدريس

نقلا عن الفرنسية

الدكتور سميل إدريس

الثن ٤ ليرات لبنانية

الثن ٣٥٠ ق.ل

منشورات دار الآداب